تشظِّي حداثة عبد الله العروي:
عبد الله حمودي مُتعقبًا مآزق النقد الإيديولوجي

The Disintegration of Abdallah Laroui's Modernity: Abdallah Hammoudi Tracing the Dilemmas of Ideological Criticism

د. سفيان البرَّاق

جامعة شعيب الدكالي
المغرب

soufianelbarrak.98@gmail.com

تشظِّي حداثة عبد الله العروي ـــــــ

ABSTRACT:

This paper aims to reveal the reasons that led Abdullah Al-Aroui to cling to European modernity, as he considered it a universal modernity, and the easiest way to embrace progress and overcome the calamities of backwardness and regression in the Arab world. Hence, he will practice an ideological critique inspired by Marx on Arab culture and its mentality, exposing its dilemmas and revealing the predicaments that strengthened the features of historical failure in it, since the publication of the book "Contemporary Arab Ideology". In it, he boldly revealed the obstacles that prevented the pursuit of revival and caused weakness to creep into the Arabs, making them unable to catch up with the leading nations. From here emerged his main thesis calling for a deeper look into our relationship with historical thought and the necessity of absorbing it and grasping its direction. Moreover, there is no way for the Arab world to avoid a thoughtful look at the Arab-Islamic heritage to reach a conclusion that there is no renaissance or progress without absorbing the gains of modern thought, turning the page on the past, fighting the traditional thought that has permeated the collective mentality, and engaging with historical thought. This last call is a clear call to throw oneself into the machinery of historicism and draw from it, given the great services it has rendered to a group of nations. Perhaps the miserable and backward Germany of the nineteenth century is a perfect example of a nation that benefited from this Western approach, and from here his fascination with Karl Marx will begin, specifically the young Marx, author of "The German Ideology," who revealed the painful misery and decline under which Germany was suffering, lagging behind its European counterparts. However, despite the novelty of his theses, a group of Arab intellectuals will confront them, and perhaps the anthropologist Abdullah Hammoudi is at the forefront of them, as he stood on the flaws that afflicted his project, focusing on the historicist approach, highlighting its shortcomings, and showing, at the same time, the impossibility of achieving the break with the heritage that Al-Aroui hopes for. He also did not neglect the sharp position that he took on popular culture, which Hammoudi defended without compromise.

Keywords: Reform, Modernity, Heritage, Historicism, Rupture, Popular Culture.

تشظِّي حداثة عبد الله العروي ـــــــ

مجلّة نقد وتنوير - العدد الثامن والعشرون - السنة السابعة ـــــــ

تشظِّي حداثة عبد الله العروي ـــــــ

انتهاكٍ محتملٍ قد ينال منهما، فضلًا عن سعيه الحثيث إلى استجلاء الأسباب التي أجهزت على مشروعين كانا ينبآن بأنهما مشروعان واعدان: مشروع الليبرالي ومشروع داعية التصنيع[1]، وينضاف إلى ذلك إلحاحه المستمر على اعتناق الفكر التاريخي والانكباب على ميدان التاريخ لتفادي ورطة الاندحار والنكوص على اعتبار أن التاريخ هو ما يجعل الأمةَ واعيةً ببوائق ماضيها متجهةً صوبَ خدمة الحاضر من أجل المستقبل، كما أنه يُمكِّنُ الكيانات المتخلفة من استجلاء المراحل والأشواط التي قطعتها الأمم المتقدمة للسير على خُطاها والاسترشاد بها، وقد خاض في هذه القضايا الجوهرية متكئًا على شبكةٍ مفاهيمية أنتجتها وابتدعتها الحداثة الغربية، وأعني: العقل، التاريخانية، الإيديولوجيا، العلم الموضوعي، الليبرالية، الماركسية الموضوعية... إلخ، واعتمد على جُملةٍ من المباحث في التحليل: التاريخ، السوسيولوجيا، تاريخ الأفكار السياسية، الاقتصاد، والفلسفة... إلخ، لتكون كتاباته أقرب إلى التنوع والشمول، وموسومةً بالاتساق المنهجي ودقة الاستنتاج الذي يعقبُ صفحاتٍ من التحليل الرزين والهادئ والمتعقل لقضايا عديدة في ميادين متباينة بيد أنَّها تتقاطع في كونها تتواشج مع المعيش اليومي للفرد، ولعلَّ ذلك ما كان ليتأتّى لولا الحصيلة المعرفية الوفيرة التي تشكَّلت لديه بعد اشتباكه المثمر مع حقولٍ معرفيةٍ عديدة والمتح منها. ولا غرو من القول إن سلسلة المفاهيم التي صدرت تباعًا بعد "**الإيديولوجيا العربية المعاصرة**" هي قطعةٌ أساس من مشروعه الفكري برمته، وقد عالجت سؤال الحداثة باعتبارها مفاهيمَ انبثقت من تربتها المعرفية، وما يزكي هذا الزعم هو أنّ العروي نفسه صرّح قائلاً: "إنّ ما كتبتُ إلى الآن يُمثلُ فصولًا من مؤلفٍ واحد حول مفهوم الحداثة"[2]. وصرح أيضًا في حوارٍ قائلًا: "سلسلة المفاهيم هي مقومات الحداثة"[3]. تعد سلسلة المفاهيم، إذن، مؤلفات متفرقة ومتتاليات معرفية يوحِّدها ناظمُ الحداثة، وتنفردُ في أسلوبها بـ "الكثافة والإبهام والالتباس وذلك ما يفرضُ قراءتين: الأولى غايتها الفهم والثانية نيتها التفكير والتأمل"[4]. لا انذهال من الزعم بأن منظومة الحداثة أو العصرنة، تتخذ من العقل مدماكًا أساس، وقد رُفعت مكانته في أوروبا غداة الاكتشافات العلمية والجغرافية والإصلاح الديني وانحلال النظام الإقطاعي وتشكُّل الطبقة البرجوازية الصغيرة التي لعبت دورًا هامًّا في تكوين اقتصادٍ متماسك وفي غاية الصلابة يتفوق على النظام الإقطاعي الهش، وصولاً إلى عصر التنوير الذي أعلى من شأنه بشكلٍ مطلق واحتفى به، وجعله المحرك الأول للإنسان، ثم مفهوم الحرية الذي تبلور بشكلٍ تدريجي ابتداءً من القرن السادس عشر بعدما غدت الحرية موسومةً بطابع النسبية؛ حيث جُرِّدت الكنيسة، بعد الثورة الدّينية، من الاحتكار الجائر وغير المبرر لهذا الحقّ،

1- إن داعية التقنية أو التصنيع الذي يُمثله سلامة موسى في الثقافة العربية المعاصرة عدَّه العروي "ليس رجل علم" بل مجرد رجلٍ نظرَ إلى الآليات والأدوات التي توفرها المدينة الحديثة وتنضح بها فشرع الافتتان بهذه الآليات يتسرّب إلى صدره؛ ومن هذا المنطلق فضّل العروي نعته بـ "داعية التقنية"، والفرق بين الداعية والمنخرط التام والمطلق في العلم والتقنية هو بائنٌ ولا يكاد يخفى. عبد الله العروي، بين الفلسفة والتاريخ، ترجمة: عبد السلام بنعبد العالي، (الدار البيضاء: المركز الثقافي للكتاب، ط1، 2020)، ص90.

2- عبد الله العروي، مفهوم العقل، (الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، ط2، 1997)، ص14.

3- يُنظر: حوارات فكرية مع عبد الله العروي، أجراها مالك التريكي، الحلقة الثانية، شوهد بتاريخ: 26 أبريل 2024:
https://www.youtube.com/watch?v=Oahfv1iHl4I&t=6s

4- محمد عابد الجابري، "مساهمة في النقد الإيديولوجي"، ضمن: علال، الفاسي، وآخرون، محاورة فكر عبد الله العروي، (الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، ط1، 2000)، ص93.

تشظِّي حداثة عبد الله العروي ـــــــ

مجلّة نقد وتنوير - العدد الثامن والعشرون - السنة السابعة ـــــــ

تشظِّي حداثة عبد الله العروي ـــــــ

مجلّة نقد وتنوير - العدد الثامن والعشرون - السنة السابعة ـــــــ

تشظِّي حداثة عبد الله العروي ـــــــ

التاريخاني، بزعامة ديلتاي، أن "التاريخ يتجسد في بطل، وأن أعلى درجات التأليف هي السيرة (...) كما أكدوا على التألفة (=الانتقال من الخاص إلى العام)، وآمنوا أيضًا بالنسبية المطلقة أو المطلق المحدود (...) في حين أن الاتجاه الوضعاني زَعَمَ أن التاريخ بشري ولا يمكن إلا أن يكون بشريًا (...) ويرفض كل تألفة مهما كانَ نوعها"[1]. قد يتساءلُ المطلع على ما كتبه العروي عن السبب الذي جعله يعتنق التاريخانية، ومعاودة تمجيدها وتعظيمها في كل كتبه تقريبًا. سوَّغ العروي هذا الاعتناق، الذي رآه بعض المثقفين من جيله غير مقنعٍ ومتَّسمًا بالمبالغة، ولعل الصفحات الأولى من كتاب "**السنة والإصلاح**" تظهر تلك المسوغات اللمّاحة. ويمكن عَدُّ اقتناعه الكلي بمنهج التاريخانية راجعًا إلى أنها آمنت بأن "التجربة البشرية الحقة تجربة تاريخية بالأولى، وأن الإنسان كائنٌ تاريخي بالأخرى"[2]. ينكشف لنا هنا أن اعتناق العروي، بحسبانه سليل الحقل التاريخي، للتاريخانية منبعه أنه لطالما آمن بوحدة التاريخ وكونيته، وأن حركة التاريخ غايتها هي الانتصار "للإنسان من حيث هو إنسان –كائن تاريخي"، هذا من ناحية، ومن جهةٍ أخرى، فإنه لطالما كرر، بوضوح، أن تأخر العرب مبعثهُ إهمال الفكر التاريخي وعدم تشربه بالعناية المطلوبة؛ حيث إن التجربة التاريخية في شكلها الكوني عامرة بالتحولات والتجارب التي تستوجب التأمل والتمعن، ويمكنها أن تسعفنا على تجاوز نكبتنا التاريخية، وما دمنا لم نتشرب مضامين التاريخانية فإننا سنظل بمبعدٍ عن النهضة وتعدِّي التأخر، وسيبقى فكرنا، في المقابل، "فكرًا ساذجًا"[3]؛ ونجاح هذه العملية مرتبطٌ بـ "الإمساك بمنحى التاريخ"[4]، وهذا الإمساك قد لا يتأتى إلا من خلال الغرف من "أدلوجة الكيانات المتخاذلة" (=التاريخانية).

ولعل منبعَ تولعه بها واعتقاده الراسخ بأنها الأداة الناجعة المسعفة على تخطِّي بلاوي النكوص والتراجع التاريخيين عائدٌ في المقام الأول إلى تفطنه إلى الدور الذي تقلدته التاريخانية وللخدمات الحسنة التي أسدتها إلى مجتمعات تقبعُ في هامش التاريخ، فضلاً عن اقتران منهج التاريخانية بمفهوم الإصلاح. يقولُ العروي في هذا الصدد منافحًا عن قيم التاريخانية، ومبرزًا مدائحها، ومؤكدًا أنها الممر الوجيز للاغتنام من التجربة الغربية الناضجة والراقية: "التاريخانية هي أن تقول في إطار التاريخ وفيما يتعلق بالمشاكل الاجتماعية لا مناص لي من أخذ العِبرة من الدول والمجتمعات التي سبقت ونجحت. ما علي إلا أن أفعل مثلها (...) لأن كل ما أريد هو أن أكون في نفس المستوى (...)"[5]. هل هذه الفضائل التي تحملها التاريخانية، في نظر رائدها الألمع في الرقعة العربية، ستجعلُ منها رؤية صالحة لهذه الأعطاب التي ملأت المجتمعات العربية وأبت أن تنفك عنها؟ حينما يسهب العروي في مؤلفه "**العرب والفكر التاريخي**" في الحديث عن أسس التاريخانية فإنَّ هذا

1- مفهوم التاريخ، مرجع سابق، ص359. (مع بعض التصرف).

2- محمّد الشيخ، "في بعض مفارقات موارد الفكر الفلسفي المغربي المعاصر"، الرباط: مجلة: كتابات فلسفية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، العدد 2، (2015)، ص38.

3- Abdallah Laroui, Islamisme, Modernisme, Libéralisme (Esquisses Critique), (Casablanca : Le centre culturel arabe, édition2, 2009), p.37.

4- خواطر الصباح (1967-1973)، مرجع سابق، ص21.

5- يُمكن للقارئ المهتم العودة إلى الحوار المتلفز الذي جمع عبد الله العروي بمالك التريكي حيث سيجدُ فيه التبريرات التي قدّمها العروي بُغية تسويغ نزوعه تجاه التاريخانية ودفاعه المستميت عنها؛ حيث إنّه وصفها بأنّها الدواء الأصلح لتجاوز التخلف مستشهدًا بالخدمة الجليلة التي أسدتها التاريخانية إلى المجتمعات الأوروبية خلال عصر النهضة أولًا ولألمانيا لاحقًا خلال القرن التاسع عشر.

تشظِّي حداثة عبد الله العروي ـــــــ

مجلّة نقد وتنوير - العدد الثامن والعشرون - السنة السابعة ـــــــ

تشظِّي حداثة عبد الله العروي ـــــــ

ولا يستقيم لأنه لم يشتبك مع مؤلفات لبحَّاثة أنثربولوجيين حقيقيين، فضلا عن عدم غوصه في نظريات أنثربولوجية بحتة حتى يكون نقده ذاك صائبًا ومنطويًا على نسبةٍ عالية من المنطق والتعقُّل.

خلُص حمودي، بعد تأمله في موقف العروي من علم الثقافة، إلى أنّه افتقد "السند القويم والفحص الموثق"، ولعل أبلج مثالٍ على ذلك هو تركيز العروي على فكر فيخته خلال تحليله للحتمية التاريخية، فيما أهمل الآراء السياسية لهذا الأخير، كما التهى عن "آراء هيغل فيما يخص مصير الشعب الألماني وأهداف حركيّته التاريخية"[1] في خِضَمِّ المنافسة القائمة بين فرنسا وألمانيا آنذاك. أضف إلى ذلك أن "ضعف نظرية المعرفة" التي لَفَّتْ العروي أسهم في هذا القصور الذي حجب عنه التوغل في مبحث علم الإنسان والتفاعل مع نظرياته الجادة والأصيلة، وكان لموقفه السياسي دورٌ مهم للغاية في هذا القصور. ولعلَّ ما زاد الطين بلةً هو وهنُ التأويل عنده؛ الذي هو، في النهاية، "الرجوع إلى الأصل"، في حين أن التأويل، مثلما تصوره حمودي، هو "تغيير لمفهوم الأصل وتغيير لمظاهر الأصل كذلك"[2]. لم يكتفِ عبد الله حمودي بتبيان العثرات التي راح ضحيتها العروي وهو يعتقد أنه سينتقد علم الثقافة ويذيع مناقصه، بل علَّق، أيضًا، على مفهومين اثنين يحتلَّان موقعًا محوريًّا في المشروع الفكري لعبد الله العروي وهما: التاريخانية والقطيعة، علاوةً على تعقيبه على النظرة المحتقِرَة والمستخفة التي نظرَ بها العروي إلى الفلكلور -الثقافة الشعبية- والتي تأتي في مقابلها "الثقافة الراقية". ليس بخافٍ على أحد أن التاريخانية هي منهجٌ متصلٌ بالواقع، وهي الباب الأوسع للكيانات المتأخرة للقفول إلى ريادة العالم، وهي الأدلوجة الميسِّرة لنجاح الدعوة الإصلاحية، وهي التي أسعفت العروي ومن تبنوها تبنيًّا كاملًا على الانفكاك عن عقبة "التجريد وذلك حينما عانق التاريخ الذي مكَّنه من اكتشاف الواقع المُجتمعي، وحينما ربط مآله بمآل المجموعة البشرية التي ينتمي إليها"[3].

وعلى الرغم من كلّ المحامد التي تنطوي عليها التاريخانية فإنَّ لها مآخذَ حاول حمودي تقصيها وإباحتِها: أولى هذه المناقص؛ إنَّ التاريخانية ومهما رامت الواقعية وادعت صلتها بالواقع إلَا أنها إذا ابتغت بناء تصوراتها فما عليها أن تفعل ذلك إلا "طِبقًا لمُفارقة الزمن التي تبدأ بالسابق لتنفذ إلى اللاّحق، وتجعل هذا اللاحق يلتحق بالأول والعكس صحيح، وذلك في دَفعةٍ واحدة"[4]. إنَّ هذا التعليق على تاريخانية العروي لم يأتِ اعتباطًا بل إنَّه استقاه من خلال تمحيص أدوات التاريخانية وغاياتها، وعاد إلى بداياتها الأولى في شكلها المكتمل خلال القرن التاسع عشر مع كارل فرنز وديلتاي وكروتشه ومن حذا حذوهم، ومن هذا المنطلق كشف حمودي أن التاريخانية "مسكونةٌ بالمفارقة" لأنها تُقصي مفهوم الزمن، علمًا أنَّه مفهوم محوريٌّ في إدراك دورة التاريخ ومراحل تطوره وتغذية الوعي به، وهذا الإقصاء يجعلها متنعمة بقدرةٍ واهمة على رؤية "ما كان، وما هو كائنٌ، وما سيكونُ أزليًا"[5]. ولعلَّ السؤال الذي يتواثبُ في الذهن: كيف يمكنها رؤيةُ هذا كله وإدراكه بهذه السهولة في غيابٍ واضح لمفهوم الزمن؟ لم ينكر عبد الله حمودي أن التاريخانية مسارٌ يمكن

1- المرجع نفسه، ص21.

2- المرجع نفسه، ص23.

3- عبد الله العروي، السنة والإصلاح، (الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، ط1، 2008)، ص6.

4- المرجع نفسه، ص36.

5- المرجع نفسه، ص78.

تشظِّي حداثة عبد الله العروي ـــــــ

واضحة ومدركة لغاياته ينخرطُ فيها المثقف والمالك للسلطة السياسية، لأنها قطيعةٌ غير مرتبطة بالماديات فقط بقدر ما هي مقترنةٌ أساسًا بالذهن والعقلية الجَمَاعيَّة والنَّهج المُتَّبَع في التفكير. استشف حمودي من نظرية القطيعة لدى العروي أنها "مجرد مفعولٍ خطابي" لا غير، وقد تمخض ذلك عن كتلةٍ من الأوهام التي استحوذت عليه ودفعته إلى الإيمان بهذه النظرية كليًّا والمنافحة عنها دونما قفول، زِد على ذلك أن ما ورَّط العروي ودفعه إلى الأخذ بالقطيعة هي تلك الثنائية المستعرة والمتضادّة: التقليد-الحداثة التي أخذت مساحةً واسعة من النقاش الفكري في دنيا العرب زهاء قرنين كاملين، وهذه الثنائية المتناقضة في الجوهر وفي الخطاب وصفها مُساجل داعي الحداثة-حمُّودي- بأنها "وهمٌ أو أدلوجةٌ تمنح لبعض الاختيارات المعينة والأذواق الذاتية قيمةً عامةً أو كونية"[1]. هل يُستجلى في هذا المضمار أن ربط العروي بين الحداثة والكونية هو وهمٌ بائنٌ نتج عن أدلوجةٍ سكنتهُ وحكمت فكره ألا وهي أن الحضارة الغربية الناجحة المُبْتَدِعة للحداثة هي النموذج الناجح والحضارة الجديرة باتباع خطواتها ومراحلها كلها حتى يُحيطَ بالعرب التقدم ويغمرهم الانتهاض والنجاح؟ إن الصراع بين هذين الاتجاهين المتنابذين: التقليد-الحداثة مبعثهُ هو أن المنحى التقليدي لا ينفكُّ عن المطالبة بصون "الهوية" وحمايتها من كل خطرٍ قد يحدقُ بها كالتحديث مثلًا، أما المنحى الحداثي، والعروي من أميزِ المنتمين إليه، فإنه يحتمي بـ"القوةِ الخارجية التي تفرضُ إصلاحها"[2]، ويعتقد الحداثيون أن الهوية الدينية-الأصالة الثقافية والماضي بأكمله هم أعداء التطور والحداثة ومن ثمة يجب اقتلاعهم من العقلية الجماعية وبذلك يتحقق النمو والتقدُّم، وهم لا يُدركون "استحالة القطيعة مع الدين بالمعنى العلماني أو الوضعي أو الماركسي لأن العلاقة مع الدين غير مرتبة وواضحة لدى الجميع، وهذا لا يمكن أن يتأتى إلا من خلال دراسة الدين وفهمه كدينٍ في المقام الأول"[3].

يرى عبد الله حمودي أن استمرار السجال بين التقليد/الحداثة لن يؤدي إلى نتيجةٍ إيجابية يُمكنها إعانة العرب في اقتلاع جذور التخلف وتشييد عهدٍ جديد مع النهضة والرقي، واستعادة الصدارة الضائعة التي لازالت تسكن وجدان الإنسان العربي لذا يغتنمُ كلَّ سانحةٍ للتذكير بأمجاد العابرين ونجاحات الذين سلفوا، وهذا يُعمق مقدار التشنُّج مع الواقع اليومي المُثقل بالإخفاقات، وفي المقابل يرى أنَّ الماضي يحفل بالنجاحات. نورد هنا تعليقا من بين التعليقات النقدية التي كشف عنها حمودي، وكانت رحاها هو دفاع العروي الأعمى عن الحداثة ووصِفها بأنها أرقى ما اختلقهُ الإنسان الغربي، وهي الدرب الصالح للعرب لا محيد عنه للانعتاق من عِقال التأخر، وهذا ما دفعه إلى نبذ التقليد ومحاربته ودعوته إلى "اجتثاثه" من جذوره، لكنه، في تقدير حمودي، لا يعلم أنه لا يوجد شيءٌ يمكن تسميته بـ: تراث أو تقليد، إذ إن العرب جميعًا لا يعيشون سوى "موروثٍ في انقلاباته طبعًا تحت ضغط الحداثة الأوروبية كموروثٍ أيضًا"[4]، ومن هذا الاستنتاج أكد حمودي أن الحداثة بالرغم من أنها اتّسمت بكونها هزة عنيفة جاءت ضد التقليد وضدّ

1- المرجع نفسه، ص10-37.
2- المرجع نفسه، ص45.
3- المرجع نفسه، ص15. (مع بعض التصرف).
4- المرجع نفسه، ص37.

تشظِّي حداثة عبد الله العروي ـــــــ

والتطوير. من هذا المنطلق كشف حمودي أن النظريتينِ معًا محدثتان؛ فالأصالة تمخضت عن المقاومة الاستعمارية في منظومة الشريعة، بينما نقيضتها جاءت نتيجةً للمقارنة الاستعمارية في العلم والتقانة والقانون الوضعي[1]، ومن ثمَّ لا يستقيم أن تهاجم إحداهما نظيرتها بدعوى القديم والحديث. لقد عدَّ عبد الله العروي أن الحداثة وحدها الكفيلة بدحر مظاهرِ التأخر والاندحار التاريخيين، وحتى تتمظهرَ الحداثة وتقضي على ملامح التخلف لابد وأن ننفك عن الماضي الذي انقرضت نظمه وقيِّمه بعدما توغلت القوى الخارجية في المجتمعات العربية وبدتْ خريعةً ومتخاذلةً أمامها، وهذا التصور الذي تمسك به العروي ناجمٌ عن مقارنة الوضع الحالي بوضع الآخر. لم يتفق حمودي مع هذه الأطروحة، التي تبناها العروي وكل المنتمين إلى تيار الحداثة، لكونها أهملت الراهن وتاهت في دروبٍ أخرى، وبذلك فهي أطروحةٌ تُنكرُ المشتركات، هذا من جهة، ومن جهةٍ أخرى، فإن قيم الماضي التي حكم عليها الحداثي بالانقراض لم تَمُتْ على الإطلاق ولم تنصهر في الكيان الغربي؛ فالمسلم في المجتمعات العربية ما دام لم ينفصل عن الروحانيات فكذلك الكائن الغربي لازال متصلًا بها رغم حداثته ولم يقطع معها بصفة كلية[2]، وعليه فإن القطيعة تستحيل أنْ تتحقق مع الدين الذي هو عصُب الهوية، ويشكل جزءًا كبيرًا من هذا الماضي المرفوض؛ لأنه متغلغل في الوجدان، والثورة على الوجدان تحتاجُ إلى رؤية دقيقة لا تهمل الواقع، وتأخذ في الاعتبار الماضي، وتدرس بحرصٍ بالغٍ تجربة التربية، وهذا أمرٌ قد يأخذُ وقتًا ليس بالقصير؛ لأن حمولة الوجدان أثقل مما يكتنزه العقل، وتأثيره، بحسبانه خزانًا للمشاعر والعواطف والانفعالات باختلاف أطيافها وأخيافها، على الذات أعمقُ من تأثير العقل، لأن الوجدان عاجزٌ عن الوعي، ولا يفكر، ولا مكِنَة لهُ في تمييز الزلل عن السداد، ولتجاوز هذا الصراع المتَّقد بين دُعاة الحداثة وأنصار القدامة-الأصالة ارتأى حمودي تقديم حل للفريقين ليتجاوزا أزمتيهما، ويتمثلُ هذا الحل في: "مقارنة العملي بين الماضي والحاضر، بين واقعنا وواقع الآخرين (...) يتعين على المقارنة أن تكون بين تشكيلات الماضي وظرفيتها وكيف استجابت لتلك الظرفيات، وبين التشكيلات المستنبطة الجديدة وتكوين الرصيد القانوني والقيمي الجديد"[3].

أقرّ حمودي في مضمار نقده لـ العروي ولهذه الثنائية المتضادة التي استنزفت الجهود البحثية في الثقافة العربية المعاصرة ولازالت تثيرها، جُملةً من المواضيع من قبيل: اختلاف الفريقين في تصورهما للحريات الفردية، بأن الاعتراف بالتفاصيل المشتركة الموجودة (اللغة مثالًا) بين الداعي إلى الماضي الذي يرى في ماضيه النموذج الأصوب والمنزَّه عن كل نقد، وفيه تحققت الشريعة بكل مضامينها، ولا مهرب لنا من إحيائه واستدعائه لإيجاد حلول لمُعضلات العصر. والمشترك القائم بين مناصري الحداثة المتقفِّين لحصائل التجربة الغربية، وفيها يرون أن الانفكاك عن عبء التخلف والتأخر التاريخيين سيكون يسيرًا عبر استيعاب روحها وفهم خلاصاتها؛ لأنها، في تقديرهم، مسيرةٌ ريادية فارقة، ويجب أن تكون ملهمةً للعرب لتجاوز كل مظاهر التأخر. والظاهر أنَّ الوعي بهذه المشتركات الموجودة، في نظر حمودي، لا يتمُّ بالشكل المرجو إلا من

1- عبد الله حمودي، الحداثة والهوية، (الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، ط1، 2015)، ص82-83.
2- المرجع نفسه، ص92-93.
3- المرجع نفسه، ص93.

تشظِّي حداثة عبد الله العروي ـــــــ

الانسلاخ عنه لأنه يمثلها ويُثبتُ وجودها ويحافظ على استمرارها، ومن ثمَّ فلا دهشة حينما نجد أن حمُّودي يرى الفلاح، ذلك الإنسان البسيط، حاملًا لصفة: فنان، وهي صفةٌ ثقيلة يصعب على كل من تدبّ فيه الحياة أن يظفر بها إلا إذا توفرت فيه شروط الإبداع الأصيل والجاد والمُنفرد. فهذا الفلاح، في تصوره، هو فنانٌ وفاعلٌ حقيقيٌ في الحياة لأنَّ حياته تتخطَّى مستوى العقل، وهذا راجعٌ إلى توفره على ملكة اللسان التي تُتيحُ له التعبير بكل حرية وأريحية عما يكتنز وجدانه ويخالج مكنونه، وعليه فهو قادرٌ على إنتاج الرموز والمعاني التي هي أسُّ الثقافة الشعبية، كما أن هذا الفلاح يتمتعُ بالمَقدِرة على القيام بالمبادرة الفعلية-الفعالة التي تلامس الحياة الواقعية وتؤثرُ إيجابيًا فيها[1].

5- خاتمة:

انطلاقًا مما تقدَّم ينشأ أنَّ منهج التاريخانية الدائب على تقويض التقليد ومجابهة الركود ورفض كل أشكال الاتباع: ذهنيةً كانت أو ماديةً، وتشجع، في المقابل، على الابتدار وحرية التصرف، زِدْ على ذلك افتتان العروي البائن بالقطائع التي حصلت بأوروبا منذ الاكتشافات العلمية وثورة الإصلاح الديني وانبلاج زمن الحداثة السياسية فضلًا عن مَقْدِرة الفرد الأوروبي الباعثة على الانذهال في التخلي عن الموروث والماضي: فنًّا، فكرًا، وأدبًا، وفتح أفقٍ جديد بمعزلٍ عما مضى وانقضى، ونظرًا أيضًا إلى النتائج الإيجابية التي حصَّلها في الأزمنة الحديثة والمعاصرة، هي كلّها خواصٌ ألَّبت العروي على التشبث بطي صفحة التراث العربي الإسلامي، وهذا سيؤدي تلقائيًا إلى اندساسه في معاكسة إيديولوجية مع حُماة الهوية وماضي الأسلاف ومن دَعوا إلى صون خصوصية العرب، ومن ثمَّ فإنَّه سيواصلُ غاراته الشرسة على الفكر التقليدي والمنتسبين إليه، ليزعم، لاحقًا، أن هذا التيار هو السبب الرئيس الذي فرمل مسيرة التحديث وعرقل تسرب الحداثة، في شقها الفكري المتصلة بالقول والفعل والسلوك، إلى المجتمعات العربية.

وجماع القول: لعل فكرة القطيعة، التي ما انفك يرددها العروي، ويلح عليها في كل ما ألفه، هي شيءٌ لافتٌ للنظر، ومستفزٌ للذهن، إذ إن المرء كلما فشل في واقعه يستنجد بالحنين إلى الماضي المنقضي، وهو الذي يسعفه في هضم النكبات التي اكتسحت محيطه وواقعه، فكيف سيتجرأ على الدواء الذي ما فتئ يداويه كما يعتقد ويتوهَّم؟ هذه القطيعة يراها العروي البوابة الأولى للتجديد والإبداع، والفك مع التقليد والاتباع، وبها يظفر الفرد باستقلاليته، وعبرها يتشرب مقومات وركائز العلم الحديث وما يقترن به من مفاهيم ونظريات، ويسعد، أيضًا، بانتعاش القطاع السياسي الذي تصير الليبرالية والديمقراطية والعلمنة أسطع مداميكه. لكن كيف السبيل إلى ذلك والخوف يدبُّ في الكائن العربي من الارتداد عن ماضيه والقطيعة مع تراثه؟ ولعلَّ مفهوم القطيعة، في متن العروي، أخذ معنى توفُّر النقد الإيديولوجي الذي يُمهِّد الطريق لنشوء الموضوعية والعوم فيها، وهي التي بوسعها إسعاف المثقف في تحليل واقعه والوعي باختلالاته ونقائصه، وهذا ما سيُمكنهُ من اكتشاف عبء التراث فيسعى إلى الانعتاق منه، وبذلك تتجسَّدُ القطيعة (طي الصفحة وتعديها)، وقد ربط العروي إحراز القطيعة بمفهوميّ: التاريخ والمجتمع؛ أي تحديث المجتمع

1- الرّهان الثقافي وهم القطيعة، المرجع نفسه، ص12-13.

تشظِّي حداثة عبد الله العروي ـــــــ

11- العروي، عبد الله. ثقافتنا في ضوء التاريخ، الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، ط6، 2002.
12- العروي، عبد الله. مفهوم العقل، الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، ط2، 1997.
13- العروي، عبد الله. أزمة المثقفين العرب: تقليديّة أم تاريخانية؟، ترجمة: ذوقان قرقوط، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنَّشر، ط1، 1978.
14- العروي، عبد الله. الغربة، الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، ط4، 1986.
15- العروي، عبد الله. خواطر الصباح (1967-1973)، الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، ط2، 2007.
16- العروي، عبد الله. خواطر الصباح (المسيرة الخضراء: 1974-1981)، الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، ط2، 2008.
17- العروي، عبد الله. خواطر الصباح (حجرة في العنق: 1982-1999)، الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، ط1، 2005.
18- العروي، عبد الله. خواطر الصباح (المغرب المُستحبُّ أو مغرب الأماني: 1999-2007)، الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، ط1، 2015.

ثانيًا: المراجع:

19- أرسلان، شكيب. لماذا تأخر المسلمون؟ ولماذا تقدَّمَ غيرهم؟، القاهرة: هنداوي للنَّشر، ط1، 2012.
20- اسبينوزا، باروخ. مقالة في السياسة، ترجمة: عبد الله العروي، الدار البيضاء: المركز الثقافي للكتاب، ط1، 2023.
21- بوبر، كارل. عقم المذهب التاريخي، ترجمة: عبد الحميد صبره، القاهرة: دار المعارف، د. ط، 1959.
22- جبار، أحمد. العلوم العربية في عصرها الذهبي، ترجمة: محمد نعيم، الجبيل: صفحة سبعة للنَّشر، ط1، 2021.
23- الجابري، محمد عابد. الخطاب العربي المعاصر، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ط5، 1994.
24- سيف، أنطوان، وآخرون. هكذا تكلَّمَ عبد الله العروي، بيروت: منتدى المعارف، ط1، 2015.
25- الطهطاوي، رفاعة. تخليص الإبريز في تلخيص باريز، المملكة المتحدة: مؤسسة هنداوي للنَّشر، ط1، 2010.
26- الفاسي، علال، وآخرون. محاورة فكر عبد الله العروي، الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، ط1، 2000.

باللغة الأجنبية:

1- Kaddouri, Abdelmadjid, *Abdellah Laroui : Le penseur marocain contemporain*, Casablanca : Centre culturel du livre, édition1, 2019.
2- Laroui, Abdallah, *Islam et Histoire*, Casablanca : Centre culturel du livre, édition1, 2021.
3- Laroui, Abdallah, *Islamisme, Modernisme, Libéralisme (Esquisses Critique), Casablanca : Le centre culturel arabe, édition2, 2009.*

تشظِّي حداثة عبد الله العروي ـــــــ